شعر الفتن والحروب الداخلية في الأندلس
من الفتح إلى نهاية عصر الإمارة

الأستاذ الدكتور رشدي علي حسن
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة مؤتة

تمهيد:

تمتد الفترة التي يتناولها هذا البحث بين سنتي 92هـ و300 هـ وتنقسم من الناحية السياسية إلى عصرين، يمتد أولهما بين سنتي 92هـ و132 هـ ويعرف بعصر الولاة، ويمتد ثانيهما بين سنتي 138 هـ و300 هـ ويعرف بعصر الإمارة.

ومع بداية العصر الأول كان بزوغ فجر الأندلس بدخول طارق بن زياد سنة 92 هـ ثم موسى بن نصير سنة 93 هـ، وتحت قيادة هذين القائدين تم افتتاح معظم أجزاء الأندلس، قبل رحيلهما إلى المشرق سنة 95 هـ، وتداول الحكم في الأندلس منذ ذلك التاريخ عدد من الولاة: أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي انتهت ولايته سنة 138 هـ وبلغ عددهم (21) واحداً وعشرين والياً [1].

وأما عصر الإمارة الأموية بالأندلس فيبدأ بدخول عبد الرحمن بن معاوية قرطبة سنة 138 هـ وينتهي بوفاة الأمير عبد الله بن محمد سنة 300 هـ.

ولعل السبب في جعل هذين العصرين عصراً واحداً في هذا البحث اتسامهما بسمة خاصة، ميزتهما عن عصر الخلافة اللاحق، هي انعدام الاستقرار الداخلي وكثرة الفتن والحروب الداخلية. وقد ألقت هذه السمة ظلالها على الشعر الحربي

خلال هذه الفترة؛ فاستأثرت الفتن والحروب الداخلية باهتمام الشعراء، وانصرفت عنايتهم عن الحروب الخارجية.

شعر الفتن والحروب الداخلية في فترة الفتح:

تعد هذه الفترة واضحة المعالم من الناحية التاريخية، فقد ذكر المؤرخون ولاتها وأمراءها، وحددوا فترة حكم كل منهم، وتوقفوا عند الفتن والحروب والثورات التي عصفت فيها، ولكن الغموض يكتنف الحياة الأدبية؛ بسبب قلة الشعر فيها.

ولعل قلة الشعر في تلك الفترة يرجع إلى عدم تأقلم العرب الفاتحين مع البيئة الجديدة، ودهشتهم أمام مظاهرها بشكل أفقدهم القدرة على قول الشعر. وهم – كما يذهب أحمد أمين – "يحتاجون إلى زمن يتأقلمون فيه لمواجهة هذه الحالة الجديدة، ولذلك نراهم لم يقولوا الشعر كثيراً كما كانوا يقولونه في جزيرة العرب أو في الشام"[2]. ويرجع عند بعض الدارسين[3] إلى ضياع هذا الشعر مع ما ضاع من تراث تلك الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس. ويمكن أن يضاف إلى هذين السببين سبب آخر يرتبط بنوعية جنس الفاتحين؛ إذ أن معظم الفاتحين الأوائل كانوا من البربر.

وقلة الشعر في تلك الفترة الزمنية تبين بوضوح عدم وجود شعر حربي إلا ما أورده المقري في النفح من شعر نسبه لطارق بن زياد حيث يقول[4]:

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

وهو شعر مشكوك في صحته ونسبته[5].

شعر الصراعات الداخلية في عصر الولاة:

أوردت بعض المصادر القديمة أبياتاً قليلة تمثل الصراعات الداخلية في عصر الولاة. وكانت هذه الصراعات قائمة بين اليمانية والقيسية، ولعل من أسباب هذا الصراع تعيين الولاة على الأندلس من قيس، وعزل اليمنيين مما جعل شاعرهم أبا الخطار الحسام بن ضرار[6] يعاتب الحكام المروانيين، ويعرض بيوم مرج راهط، وما كان فيه من بلاء كليب مع مروان بن الحَكم، وقيام القيسية مع الضحاك بين قيس الفهري قائد عبد الله بن الزبير، على نحو ما نرى في قوله[7] :

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا   وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط   ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

وقيناكم حر القنا بنحورنا   وليس لكم خيل سوانا ولا رجل

فلما بلغتم نيل ما قد أردتم   وطاب لكم منا المشارب والأكل

تعاميتم عنا بعين جلية   وأنتم كذا ما علمت لها فعل

وكان لهذه الأبيات وقع شديد، وأثر عظيم إذ أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بأن يولي حنظلة بن صفوان الكلبي على أفريقيا، وأبا الأخطار الحسام بن ضرار على الأندلس[8]. وعلى نحو ما نرى في قوله أيضاً يذكر ثأراً أخذه لعزيز من قومه[9] :

فليت ابن جواس يخبر أنني   سعيت به سعي امرئ غير عاقل

قتلت به تسعين تحسب أنهم   جذوع نخيل صرعت في المسايل

ولو كانت الموتى تباع اشتريته   بكفي وما استثنيت منها أناملي

وتمتد هذه الصراعات بين القيسية واليمانية إلى نهاية عصر الولاة عندمـــا ولي يوسف الفهري الأندلس، والصميل بن حاتم سرقسطة، فكـــثر اضطـــهادهم للقبـــائل اليمنية، فتجمعت هذه القبائل واتحدت، وثارت لتزيل الصميل بن حاتم عن سرقســـطة فحاصرته، فاستنجد بالقيسية لفك الحصار عنه فنجدوه، وقال شاعر منهم[10] :

تـــبشر بالسلامـــة يا جدار   أتاك الغوث وانقطع الحصار
أتتك بنات أعوج ملجمات   عليها الأكرمون وهم نـــزار

شعر الفتن الداخلية في عصر الإمارة:

من هذه الفتن ثورة أبي الصباح بن يحيى اليحصبي، أحد زعماء اليمانية، علـــى عبد الرحمن الداخل بناحية أشبيلية سنة 149 هـــ وفيها يقول شاعر مرواني، محرضاً على قتل صاحب هذه الفتنة[11] :

لا يفـــلتنك فيـــأتينا ببائـــقة   أشدد يديك به تبرأ من السقم
جلله عضباً من الهندي ذا شطب   إن الصرامة فيه فعلة الكرم

ومنها فتنة أبي الأسود الفهري الذي جمع أتباعه، وثار على الأمير عبد الرحمن الداخـــل، ولكن لحقت به هزيمة منكرة تعد من أعظم فتوحات الأمير عبد الرحمن الداخل، ولكـــن لحقت به هزيمة منكرة تعد من أعظم فتوحات الأمير عبد الرحمن. وفي ذلـــــك يقـــول الشاعر أبو المخشي شعراً يصف فيه ما لحق بأبي الأسود الفهري من هزيمة وانكســـار. ويشيد ببطولة الأمير سليمان بن عبد الرحمن[12] :

وإذا تساءل عن مواقع معشر   وذويهم طلب الذي لا يقـــدر
رشد الخليفة إذ غدوا فرماهم   بالموبذي الجـــهم والمتـــــأزر
وغدا سليمان السماح عليهم   كالليث لا يلوي على متـــعذر

غاداهم متقنعـــاً في مـــأزق   بالموت مرتجس العوارض ممطر
أما سليمـــان السمـــاح فإنه   جلى الدجى وأقام ميل الأصعر
وهو الذي ورث الندى أهل الندى ومحا مغبة يوم وادي الأحمـــر

ومنها كذلك ثورة سكان الربض على الحكم بن هشام سنة 202 هـــ الـــــذي أخمد ثورهم بعنف شديد، ونكل هم تنكيلاً، حتى اقترن اسمه بهـــم، فـــأصبح يعـــرف بالحكم الربضي، وقال فيهم بعد أن شتتهم، ومزق جموعهم[13] :

غناء صليل البيض أشهـــى إلى الأذن
من اللحن في الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسنـــة والقنـــا
أرتك نجوماً يطلـــعن من الطعـــن
بها يهتدي الساري وتنكشف الدجى
وتستشعر الدنيا لباساً من الأمـــن
شققت غمار الموت تخطىء مهجتي
سهام ردى قبلي أصابت ذوي الجبن
إذا لفحت ريح الظهائر لم يكـــن
لفاعي فيهـــا غير فيء القنا اللـــدن
وإن لم يجد حصناً سوى الفر مقدم
فما لي غير السيف والرمح من حصن

وله في تبرير أفعاله بأهل الربض قوله[14] :

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً
وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغــرة
أبادرها مستنضي السيف دارعــا
وشافه على الأرض الفضاء جماجماً
كأقحاف شريـــان الهبيد لوامعــا
تنبيك أني لم أكـــن في قراعهـــم
بوان وأني كنـــت بالسيـــف قارعا

شعر الصراع بين المولدين والعرب في عصر الأمارة:

اضطربت الأحوال السياسية في النصف الثاني من القـــرن الثـــالث الهجـــري وبخاصة في أيام الأمير عبد الله بن محمد (275 هـــ — 300 هـــــــ) وقويـــت شـــوكة المولدين، واشتدت عداوتهم للإمارة الأموية وللعرب، فأخذ زعيمهم ابن حفصون يغـــير على العرب ويكتسح بحملاته مضاربهم، ويتحرش بالإمارة الأموية. وأمام شعور زعمـاء القبائل العربية بعجز الإمارة الأموية عن حمايتهم؛ راحوا يكونون لأنفسهم جيوشـــــهم الخاصة لكي يدافعوا عن أنفسهم، ويواجهوا الموجة العنصرية الـــتي أثارهـــا المولـــدون والمستعربون.

وفي كثير من الأحيان كانت الإمارة الأموية طرفاً محايداً في هذه الفـــتن الـــتي نشبت بين المولدين والعرب؛ إذ لم تكن قوتها تمكنها من التدخل، ولكنـــها كـــانت في بعض الأحيان تجبر على التدخل للحفاظ على كيانها؛ إذ لم يعـــد المولـــدون يكتفـــون بمهاجمة التجمعات العربية، بل أصبح عمر بن حفصون يهاجم الإمارة نفسها، ويـهددها بالزوال.

وأصبحت التجمعات العربية في جنوب الأندلس تكون إمارات تكاد تكون مستقلة عن الإمارة الأموية، وبخاصة في غرناطة وأشبيلية؛ فنشبت بين هذه التجمعات العربية والمولدين معارك عديدة، سفكت فيها الدماء، وتبودل الطعن والضرب، كما تبودلت الأشعار؛ فأنشدت قصائد الحماسة والتحريض والحث على القتال والهجاء وغير ذلك. وبعض هذه القصائد يتميز بالطول، وبعضها الآخر يجري مجرى المقطعات. وهي كلها تصور هذا النزاع والتناحر العنصري بين المولدين والعرب في الأندلس خلال هذه الفترة.

وقد كان لتلك الحركة العنصرية الناشبة بين العرب والمولدين سلاح من الشعر؛ إذ وقف بعض الشعراء العرب إلى جانب المعسكر المنتصر للعروبة، وراحوا يمجدون العرب، ويفاخرون بهم، وينافحون عنهم، ويدعون إلى التكتل للقضاء على أعدائهم؛ كما وقف بعض الشعراء من ذوي الأصول الإسبانية إلى جانب المعسكر المنتصر للمولدين، المنافحين عن الإسبانية، وأخذوا يجرحون العرب، ويدعون إلى الخلاص منهم، وكانت المعركة الشعرية تأخذ في الغالب شكل النقائض، حيث ينقض كل فريق الآخر بشعر من وزنه وقافيته.

ومن أمثلة الشعر المناصر للحركة العنصرية في الأندلس في تلك الفترة، قول شاعر من المولدين يقال له العبلي، في هجوم على عرب إلبيرة[15] :

منازلهم منهم قفار بلاقع	تجاري السفي فيها الرماح الزعازع
وفي القلعة الحمراء تدبير زيغهم	ومنها عليهم تستدير الوقائع
كما حصدت آباءهم في ضلالهم	أسنتنا والمرهفات القواطع

وقد رد عليه الشاعر الأسدي شاعر العرب، فقال[16] :

منازلنا معمورة بلا بلاقع	وقلعتنا حصن من الضيم مانع

وفيها لنا عز وتدبير نصرة ومنها عليكم تستتب الوقائع

ألا فأذنوا منا قريباً بوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع

ومن أمثلة هذا الشعر المناصر للعنصرية كذلك قول العبلي في قصيدة له عن العرب[17]:

قد انقصفت قناهم وذلوا وزعزع ركن عزهم الأذل .

وقول سعيد بن جودي أحد شعراء العرب في الرد عليه، وفي تمجيد زعيم العرب سوار بن حمدون[18]:

لسوار علـــى الأعداء سيـــف

أيادي ذوي العداوة فاضمحلوا

لقد ذلـــت رقابهـــم عـــبيداً

فصادهـــم شديد البأس صـــل

سقاهم كأس حتف بعد كأس

بهـــا نهل العبيد معاً وعلـــوا

وقد رفعـــت لســـوار قنـــاة

لها خضـــعت رقابهم وذلـــوا

قتلـــت بواحد ســـوار ألفـــاً

وألفهـــم بواحـــدنا يقـــل

فأكثـــر قتلنـــا لهـــم حـــلال

بما ارتكبوه ظلماً واستحلوا

فأوردنـــا رقابهـــم سيـــوفـــاً

تشـــب النار منها إذ تسل

وقد سفكـــت دماؤهم وطلت

وليـــس لنا دم يوماً يطـــل

ومن نماذج الأشعار المتصلة بفتنة العنصرية، قول الشاعر الفارس ســـعيد بـــن جودي، يمدح سوار بن حمدون، ويذكر وقيعته الأولى بالمولدين، وأسره جعد بن عبـــد الغافر[19] عامل الأمير عبد الله وأخذه بثأر زعيم العرب يحيى بن صقاله[20] :

قد طلبنا بثـــأرنا فقتـــلنـــا

منكم كـــل مـــارق وعنيد

قد قتلناكـــم بيحيى وما أن

كان حكم الإله بالمـــردود

هجتم يا بني العـــبود ليوثاً

لم يكونوا عن ثأرهم بقعود

فاصطلوا حرها وحر سيوف

تتلظى عليـــكم كالـــوقود

جاءكم ماجد يقود إليكـــم

فتية منهم كـــمثل الأســـود

ماجد قد جرى إلى المجد حتى

نال بالسبـــق غاية التمـــجيد

ونمته للجـــود آباء صـــدق

وجدود ما مثلهم من جـــدود

ومن أمثلة هذا الشعر كذلك قول (سعيد بن جودي) يشيد ببطولة القائد العربي سوار بن حمدون القيسي ويسجل انتصاره على المولدين في وقعة المدينة التي حدثت سنة 276 هـ[21] :

يقول بنو الحمراء لو أن جنحنا
يطير لعشاكم بشؤبوب وابل
وضقتم به ذرعاً وجاشت نفوسكم
وما منعتكم مانعات المعاقل
فقد كان طرد الجنح إذ طار نحونا
كذباب حسوا وكدود المزابل
وهاجت شآبيب الحتوف عليكم
برعد وبرق سحم وهواطل
لظلت سيوف الهند تحصد جمعكم
حصاد زرع أينعت للمناجل
ولما رأونا راجعين إليهم
تولوا سراعاً خوف وقع المناصل
فصرنا عليهم والرماح تنوشهم
كوقع الصياصي تحت وهج القساطل
فلم يبق منهم غير عان مصفد
يقاد أسيراً موثقاً في السلاسل
وآخر منهم هارب قد تضايقت
به الأرض يهفو من جوى وبلابل

لقيتـــم لنا ملمـــومة مستجيرة
تجيد ضراب الهام تحـــت الهواطل

بها من بني عدنان فتيان غـــارة
ومن آل قحطان كمثل الأجـــادل

يقودهـــم ليث هـــزبر ضبارم
محث حروب ماجـــد غير خامل

ومن نماذج الأشعار المتصلة بفتنة المولدين وحركتهم العنصرية، قول الشـــــاعر الأسدي، يدعو العرب جميعاً إلى الوحدة واليقظة، ولا يفرق بين عدنـــاني وقحطـــاني، ويؤكد أن من أعظم أمجاد العرب ودواعي سيادتهم كون النبي عليه الصـــلاة والســـلام منهم، وكون الخلفاء الراشدين والمهاجرين والأنصار من آبائهم[22] :

يا أيها العرب في أقصـــى محلتهم
أنتم نيام ومن يشناكم سهر

ما عيش عدنان دون الحي من يمن
ومن هم يمن قد خالهم مضر

إن السهام إذا ما فرقت كسرت
وإن تجمعن يوماً ليس تنكسر

أنتم قلـــيل، كثير في عنائكم
وغيركم قلل فيكم وإن كثروا

أليس منكم نبي الله أكرم من
برا الإله ومن جاءت به السور

وصاحباه: أبو بكر خـــليفته

وخدنه المرتضى من بعده عمر

ولم ترتبط الفتنة العنصرية بمدينة أو منطقة أندلسية بعينها، بل امتد لهيبـــــها إلى كل الأصقاع الأندلسية تقريباً، ومن نماذج الأشعار على ذلك، قول شاعر عربي يقال له عبد الله ويلقب بشاعر الموازنة، يصف معركة عنيفة وقعت في منطقة أشـــــبيلية ســـنة 276هـــ بين العرب والمولدين، ويشيد بالانتصارات التي حققها العرب، ويذكر ما لحـــق بالمولدين من هزيمة وخزي، وما حدث فيها من قتل[23] :

أبدنا بالسيوف بني العبيد

فراحوا هامدين على الصعيد

قتلنا منهـــم عشـــرين ألفاً

فقللـــنا الكثير مـــن العديـــد

سوى من مات مرمياً وغرقاً

بنهر زاخر الأمـــواج مـــود

بنو قحطان للأدواء تنـــمى

وينمى العبد منهـــم للعـــبيد

كلاب في ثياب اللوم رامت

تغاور في العرين حمى الأسود

فراش الناس وانتعشوا وحلوا

وقوداً في الجحيم عـــلى ثمود

ولعل هذه الأشعار المعبرة عن الفريقين المتصارعين تظـــهر بوضـــوح الـــروح العنصرية، فشعراء العرب يواجهون هذه الحملة العنصرية بدعـــوة صريحـــة إلى تكتـــل

الأحياء العربية، وإلى تمسكهم بالوحدة لمواجهة أعدائهم، ويصفون المولدين بألفاظ ومصطلحات خاصة، من مثل "بنو الحمراء" و"العبيد". ويستخدمون في نعت العرب ألفاظاً توحي بالرفعة وكرم الأصل والمحتد. ولعل ما نطلق عليه في أيامنا بالحرب النفسية قد لجأ إليها الشعراء من خلال رفع معنويات رجالهم بإبراز مواطن قوتهم وتحطيم معنويات الخصوم والأعداء بكشف عيوبهم ومواطن ضعفهم، وتضخيم هذه العيوب بشكل يساهم في إضعاف الروح القتالية عند رجالهم.

شعر الصراع الحربي بين الأمراء الأمويين والثائرين عليهم:

مثلت معظم الأشعار السابقة الفتن الداخلية والحروب الهامشية التي لم تكن الإمارة طرفاً مباشراً فيها، إلا أن بعض هذه الأشعار مثلت بعض الحروب المحدودة التي كان يشعل فتيلها الثائرون على الدولة من مثل ما قيل في ثورة الربضيين من شعر على لسان الحكم بن هشام. وإذا كانت هذه الأشعار تمثل الصراعات الداخلية العنصرية، فإن هناك أشعاراً تصور حروباً داخلية كانت تمثل خطراً كبيراً على الإمارة الأموية في الأندلس. وتتمثل هذه الحروب في الحملات التي كان يشنها زعيم المولدين والمستعربين عمر بن حفصون الذي عاصر أربعة من أمراء بني أمية، وسبب لهم كثير من الأزمات، وهم: محمد بن عبد الرحمن، والمنذر بن محمد، وعبد الله بن محمد، ثم عبد الرحمن الناصر الذي انتهى أمر ابن حفصون في سنوات حكمه الأولى.

وقد سجل الشعر في تلك الفترة بعض ما كان من معارك بين الأمويين والخارجين عليهم. ومجد ما أحرزه هؤلاء وقوادهم من انتصارات، وصور الجيوش في زحفها المظفر، وسخر من الأعداء في انهزامهم، ومن أمثلة هذا الشعر قول عباس بن فرناس في بعض حملات الأمير محمد[24] :

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف

لهوم الفلا عبل القبـــائل مـــلتف

إذا أومضت فيه الصوارم خلتــها

بروقاً تراءى في الحمام وتستخفي

كأن ذرى الأعـــلام في مـــيلانها

قراقير في يمن عجزن عن الجدف

وإن طحنت أركانها كان قطـــبها

حجا فلك ندب شمـــائله عـــف

سمـــى خـــتام الأنـــبيـــاء محـــمـــد

إذا وصف الأملاك جل عن الوصف

فما كان فما كان إلا أن رماهم ببعضها

فولوا على أعقاب مهزولة كشـــف

كـــأن مساعـــير المـــوالي عليهـــم

شواهين جادت للغرانيق بالنســـف

بنفسي تنانين الوغى حـــين جمعـــت

إلى الجبل المشحون صفاً على صف

ومن أمثلة هذا الشعر كذلك، قول أحمد عبد ربه يســـجل أحـــداث موقعـــة "حصن بلاي" التي دارت بين عمر بن حفصون والأمير عبد الله، ويذكـــر أن الأمـــير انتصر فيها انتصاراً عظيماً أنقذ الأمارة من السقوط. ويهنئه بهذا الظفر، ويشيد بحســـن بلائه في هذه الموقعة[25] :

الحق أبلج واضح المنهاج
والبدر يشرق في الظلام الداجي

والسيف يعدل ميل كل مخالف
عميت بصيرته عن المنهاج

وإذا المعاقل ارتجت أبوابها
فالسيف يفتح قفل كل رتاج

نشر الخليفة للـــخلاف عزيمة
طوت البلاد بجحفل رجراج

جيش يلـــف كتائبا بكتائب
ويضم أفـــواجاً إلى أفـــواج

وتـــراه يأفر بالقـــنابل والقنا
كالبحر عند تلاطم الأمواج

من كل لاحقة الأياطل شدف
رحب الصدور أمينة الأثباج

وترى الحديد فتقشعر جلودها
خوف الطعان غداة كل هاج

وهم كأسدفة الظلام وبعضها
صفر المناظر كاصفرار العاج

من كل سامي الأخدعين كأنما
نيطت شكائمه بجدع الساج

لما جــفــلن إلى "بلاي" عشية

أقوت معاهــدها من الأعلاج

فكأنما جاست خلال ديارهم

أسد العرين خلت بسرب نعاج

ونجا ابن حفصون ومن يكن الردى

والسيف طالبه فليــس بنــاج

في ليلــة أســرت به فـــكأنما

خيلت لــديه ليلة المعــراج

ما زال يلقح كل حــرب حائل

فالآن أنتجــها بــشر نتاج

فإذا سألتهم مــوالي من هــم

قالوا مــوالي كــل ليل داج

ركب الفرار بعصبــة قد جــربوا

غب السرى وعــواقب الإدلاج

ومن الأشعار التي تحدثت عن هذه الموقعة "حصن بلاي" قول الشاعر العــربي سعيد بن عمرو العكي، يصف جيش الأمير عبد الله، ويهدد ابن حفصون، ويتوعده بما سيلقاه من سوء المصير على يد هذا الجيش العظيم[26] :

أجل لحظ طرف الناظر المتأمل

ترى البحر يطفو فوق سهل وأجبل

ترى الأرض وقفاً لا تسير وإنها

لركــب تهــوى كــالتقى المتهيل

تغص بجيش مد ما بين مشرق

ومطلع الشمس جنح لـــيل مـــوصل

كانت سماء النقع تبدي كواكباً

بأكنافها مـــن لمح رمح ومـــنصل

فقل لابن حفصون رويدك إنها

كـــتائب دقـــت قمطريراً بأكفـــل

ولابن عبد ربه شعر في موقعة "حصن بلاي" يصف فيه سقوط هذه الحصـــن، واستسلام أهله بعد معاناة طويلة، يقول[27] :

هو الفتح منظوماً على إثره الفتح

وما فيهما عهد ولا فيهما صلح

سوى أن صفحاً كان من بعد قدرة

وأحسن مقرون إلى قدرة صفح

سل السيف والرمح الرديني عنهما

فتسمع ما ينبي به السيف والرمح

لقد شفعت يوم العروبة عـــندها

بعـــيد لنا فيه الســـلامة والنجح

ذبائح راحت يوم عيد لحومـــها

وما ازدان عيد لا يكون بـــه ذبح

قريناهم سجلاً من الحرب مـــرة

وعشراً ركيكاً ليس في طعمه ملح

ومقربة يشقر في النقـــع كمتها

وتخضر حيناً كلما بلـــها الرشح

تراهن في نضح الدمـــاء كأنمـــا

كساها عقيقـــاً أحمراً ذلك النضج

تطير بلا ريش إلى كـــل صيحة

وتسبح في البر الذي ما بـــه سبح

عليها من الأبطال كل ممـــارس

يرى أن جد الحرب من بأسه مزح

يعدونه الأعداء كرباً عليهـــم

على أنـــه طلق لنا وجهـــه سمح

إلى أن يقول

كأن "بلاي" والخنازير حولهـــا

مقطعة الأوصـــال أنيابها كلـــح

ديار الذين كذبوا رسل ربهـــم

فلاقوا عذاباً كان موعـــده الصبح

فلو نطق السفح الذي قتلوا به

إذن لبكى من نتن قتلاهم السفح

دماء شفت منها الرماح غليلها

فود قضيب البان لـــو أنه رمـــح

ولله ما أزكـــى تجارة صفقـــة

يكون لهم خســـرانها ولنا الربح

أقمنا عليها اللهو في يوم عيدهم

فكم لهم فصحاً به قطع الفصـــح

ألا تعست تلك الوجوه وقبحت

فما خلقاً إلا لها التعس والقـــبح

فيا وقعة أنســـت وقيعـــة راهط

ويا عزمة من دونها البطن والنطح

ويا ليلة أبقت لنا العـــز دهرنا

وذلاً على الأعداء جل به الترح

بدولة عبد الله ذي العز والتقى

بحبر في أدنى مقاماته المـــدح

ومن الأمثلة الشعرية على هذه الحروب قول عبيد الله بن يحيى بن إدريس يـهنئ الأمير عبد الله، ويصف ما ألحقه جيشه بالخارج على حكمه سعيد بن وليد بن مســـتنة من هزائم، وما لحقه من ذل وهوان[28] :

علي من لحظه سيفان سلهـــما

فكـــم بقـــاء أســـير بين سيفين

إلا كبقـــاء الجـــانـــبين مـــعاً

من بين جندين للتقوى معـــدين

الله أيد عبد الله حـــــين غـــدا

يذب عن دينه الأرضي عـــدوين

يا بن الخلائف أسعرت الخلافين

ذعراً وفرقـــت ما بين الـــفريقين

وجاءك الفتح في العيد الكبير فما

رأيت مثلهـــما في اليـــوم عيدين

فتح تجـــددت الدنـــــيا لجـــدته

واستقبل النـــاس في فضل الزمانين

إن الذي ابتدأ النعمى يجـــود بها

عليك في جـــد أشـــلاء النفاقين

هو ابن مستنة الغاوي وصـــاحبه

في النـــار لما أجابا داعـــي الحين

رمـــيت ذلـــك بـــداء لا دواء له

منه وغادرت هـــذا بين حـــربين

يا فرحة مـــن رأى الغزو طالعـــها

وشاهد الفتح لم يأسف على البين

ألذ في السمع من بشرى الحميم إذا

وافى ومن منظر المعشوق في العين

هذا النجاح أمام المسلمـــين وذا

هـــو القفول الذي أوفى بعيـــدين

ثم الأعادي بحتـــف نـــازل بهم

معجل هلكهم مـــن قبل شهـــرين

لا كالذي أنبأ الشاوي طليطلة

إن البـــلاء عليهـــا بعـــد عامـــين

وقد كان الثوار المنفصلون عن الإمارة الأموية يكونون إمارات تكاد تكـــون مستقلة وكان بعضهم يحاول توسيع إمارته على ما يجاوره من إمارات، ومـــن الأمثلـــة على ذلك أن عبيد الله بن أمية، المعروف بابن الشالية، نازع الفتح بن ذي النون حصنـــاً من حصونه، فغلب عليه، وحازه لمنطقة نفوذه وضمه لإمارته، واستبشر بحضور ابنـــه "لب" معه في هذه الموقعة، ومن النماذج الشعرية المرافقة لهذه الأحداث قول الشـــاعر عبيديس بن محمود[29] :

جاء البشير بما عم السرور بـــه

من الأمير أبي مروان في الســـفـــر

فقلت حين سألنـــاه فأخـــبرنا

بالله قل وأعـــد يا طـــيب الخـــبر

بيمن أبي عيســـى وغـــزوتـــه

فـــاز الأمير علـــى الأعداء بالظفر

غزا بها كلـــفاً صـــباً بآنســـة

إذ حل منه محـــل السمع والبـــصر

فأصبح الجيش مسعوداً به وبدت

من صبره عـــبر أربت علـــى العـــبر

هذا صنيع بني البازي إذا ضربت

بالصيـــد لم تبق غرنيقاً و لم تـــذر

غرانق لم يقصـــــر دون غايتـــه

مخـــرج وهـــو لم يـــــدرج و لم يطر

جرت به إلى العلا أعراق أربـــعة

فأقبـــل الابن يتلـــوه عـــلـــى الأثر

قاد الجيوش إلى الأعـــداء مدرعـــاً

يصلى الوغى بالوعي في ســـن مثغر

من تحتـــه فرس في كفـــه قبـــــس

يرمي الشياطين في الهيجاء بالـــشرر

ترى على السرج منه صورته خلقت

من العلا والندى من أجمـــل الصور

كالغيث كالليث إلا أنـــه بشـــــر

كالمزن صورته كالشمس والقمـــر

خلى حصـــون أبي فتـــح مفتحـــة

أبـــوابها للقناء في الورد والصـــدر

له نتائج مـــن تـــدبير فطـــرتـــه

تضل فيها عيون الجـــن والبشـــر

والملاحظ فيما تقدم من أشعار أن معظمها من نتاج الشـــعراء العـــرب، إذ أن المصادر لم تحفظ من شعر المولدين إلا النزر اليسير، وأن شعر الفتن والحروب في هـــذه الفترة كان قسمة تكاد تكون متساوية بين الشعراء المداحـــين، والشـــعراء الفرســـان المشاركين في المعارك والحروب، على الرغم من أن هؤلاء الشعراء الفرسان لم يشـــتهروا

بالشعر كاشتهارهم في السياسة والقيادة؛ إذ كان أغلب هؤلاء الشعراء الفرسان في هذه الفترة من الأمراء والقادة من مثل عبد الرحمن الداخل، والحكم بن هشام، وسعيد بن جودي.

واستطاعت الأشعار التي تصور الفتن والحروب الداخلية أن تعطي صورة تكاد تكون واضحة عن المنازعات والصراعات والفتن والحروب الداخلية التي اجتاحت الأندلس في تلك الفترة. وعلى الرغم من ذلك فهي في الحقيقة جزء من شعر كثير قيل في هذه الأحداث والحروب، ضاع واندثر في خضم الفتن والنزاعات، أو أنه ضاع بعد تلك الفترة، وانمحت آثاره تحت وطأة الحقد الصليبي الذي اجتاحت عواصفه أرجاء الأندلس الإسلامية؛ لتقضي على كل ما هو عربي إسلامي في تلك الديار.

في الأداء الفني:

شعر الفتن والحروب الداخلية في هذه الفترة يكاد يكون من حيث نسبته إلى قائليه في قسمين: قسم معلوم القائل وهو كثير، وجاء في قصائد ومقطعات، وقسم مجهول القائل وهو قليل، وجاء في مقطعتين تقع كل منهما في بيتين. والشعر المعلوم القائل ورد بعضه على ألسنة الشعراء الفرسان القادة، وورد بعضه الآخر على ألسنة الشعراء المداحين، وكان الشعراء الفرسان يعمدون إلى إظهار بطولاتهم، ويسجلون انتصاراتهم، ويفخرون بقدرتهم على أخذ الثأر، وإلحاق الهزيمة بالأعداء، وأنهم يتحملون المشاق، ويقتحمون الأهوال، ولا يبالون بأي شيء من أجل تحقيق أهدافهم النبيلة، ولذلك يكثر في شعرهم ألفاظ تدل على شخصياتهم وأعمالهم من مثل: إنني، وسعيت، وقتلت، وشققت، واشتريته بكفي وما استثنيت منها أناملي، ودعني، وهمي، ومهجتي، ولفاعي، وغير ذلك. ويجنحون إلى استخدام الضمائر الدالة على الأنا أو نحن، من مثل

قولهم: قد طلبنا، بثأرنا، فقتلنا، قد قتلنا ... ولعل استخدام هذه الكلمات والألفاظ الدالة على تعظيم شخصية الشاعر الفارس يرتبط ارتباطاً وثيقاً بشعور هؤلاء الفرسان بهممهم العالية، وعزة نفوسهم وعظمتها.

وأما الشعراء المداحون المشاركون في تصوير هذه الأحداث، فإن أشعارهم تحمل ألفاظاً تدل على إبراز صفات القائد الممدوح المتمثلة في الشجاعة والإقدام وحسن البلاء في الحروب.

وأما بناء شعر الفتن والحروب الداخلية، فقد جاء في معظمه في قصائد طويلة وجاء القليل منه في مقطعات، وأفردت معظم هذه القصائد والمقطعات للحديث عن هذه الفتن والحروب الداخلية، والإشادة ببطولات القادة.

وتمثلت معاني هذا الشعر في هذه الفترة، بإبراز معاني الشجاعة والفروسية والكرم والروح الدينية وروح العصبية.

وارتبطت هذه الأشعار بالبيئة الأندلسية ارتباطاً واضحاً، إذ أورد الشعراء أسماء الأماكن الأندلسية التي حدثت فيها الفتن والحروب، واستمدوا صورهم وتشبيهاتهم من بيئتهم، وهو ما ميز شعرهم الحربي عن شعر أهل المشرق العربي، وظلوا مرتبطين في أساليبهم وألفاظهم وأوزانهم بالقصيدة العربية الموروثة؛ فلم يخرجوا في هذا الشعر، وفي هذه الفترة بالذات عن خصائص الشعر العربي الفنية، وظلوا مشدودين إلى تراثهم بكل سماته الفنية: فجاءت أوزان شعرهم في معظمها على البحور الطويلة: الطويل، والكامل، والبسيط، والوافر، والرجز، وجاءت قوافيهم على أكثر الحروف شيوعاً في الروي في الشعر العربي: اللام، والراء، والدال، والنون والعين.

خاتمة:

سلك هذا البحث في تناول شعر الفتن والحروب الداخلية في الأندلس في عصري الولاة والإمارة طريق المنهج التاريخي؛ فبدأ بتمهيد تاريخي عرض فيه عرضاً سريعاً هذه الفترة، ثم سار مع هذا الشعر وفق الترتيب التاريخي لهذه الفتن والصراعات والنزاعات والحروب الداخلية؛ مبيناً دور الشعراء في رسم صور هذه الأحداث، ودورهم في إلهاب المشاعر، وبث روح الحماسة والشجاعة والإقدام في نفوس المتصارعين، وأثرهم في دعوة القبائل العربية إلى الوحدة والاتحاد في وجه الأعداء.

وساعد البحث في التعريف ببعض الشعراء المغمورين ممن عاشوا في تلك الفترة المتقدمة من وجود العرب في الأندلس، وبين خصائص شعرهم الموضوعية والفنية، وهي خصائص لا تختلف كثيراً عن خصائص الشعر في المشرق العربي.

الهوامش

1- ينظر لمعرفة الولاة ومدة ولايتهم: ابن عذارى المراكشي: البيـــان المغــرب، ج^{3}، ص 23 وتاريخ ابن خلدون، ج^{4}، ص 256، والمقري؛ نفح الطيب، ج^{1}، ص 298.

2- أحمد أمين ظهر الإسلام، ج^{3}، ص 99

3- ينظر: أحمد هيكل: الأدب الأندلسي، ص 67، وميشال عـــاصي: الشــعر والبيئــة في الأندلس، ص 52، وكراتشوفسكي: الشعر العربي في الأندلس، ص 23.

4- المقري: نفح الطيب، ج^{1}، ص 265. والمقير: المطلي يالقار، وكانت تطلى به السفن.

5- أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 72.

6- أبو الخطار الحسام بن ضرار بن سلامان الكلبي، من شعراء الأندلس في عصر الولاة، ولى إمارة الأندلس سنة 125 هــ، ثم خلع عنه لتعصبه لليمانية على المضرية (ينظر في أخباره وأشعاره: ابن الأبار: الحلة السيراء، ج^{1}، ص 61، والحميدي: جذوة المقتبس، ص 402)

7- ابن الآبار: الحلة السيراء، ج^{1}، ص 64. والحميدي: جذوة المقتبس، ص 402.

8- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 44.

9- الحميدي: جذوة المقتبس، ص 402

10- مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص 68. وقد وقع الحصار المذكور سنة 127هــ والشــاعر غير معروف.

11- المصدر السابق، ص 106. ولم يذكر المصدر اسم الشاعر المرواني.

12- لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة، ج^{4}، ص 234. والشاعر أبو المخشي عاصم بن زيد من شعراء الأندلس، عاصر الأمين عبد الرحمن الداخل وابنه هشام. (ينظــر في أخبــاره وأشعاره: لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج^{4} ص 234). والموبذي: الحاذق. والجهم الغليظ. والمتأزر: من شد للأمر مئزره، أي تهيأ لـــه. ومرتجــس: مـــن

ارتجست السماء أي أرعدت. والعوارض: السحب العظيمة. والمجانص: جمع مجنص، وهو اسم مكان من جنص أي مات فزعاً.

13- ابن الآبار: الحلة السيراء، ج1 ، ص 49. والربض: ضاحية من ضواحي قرطبة الجنوبية.

14- المصدر السابق، ج1 ، ص 44. والأقحاف: جمع قحفة، وهي الفلقة التي تشبه قحف الرأس. وشريان الهبيد: شجر الحنظل.

15- ابن حيان: المقتبس، ص 62. والسفي: التراب.

16- المصدر السابق، ص 62.

17- المصدر نفسه، ص 64.

18- المصدر نفسه، ص 64. وسعيد بن جودي بن أسباط، قائد وشاعر فارس، تولى أمر العرب بعد موت صاحبه سوار بن حمدون سنة 277 هـ، قتل على يد أصحابه سنة 284هـ (ينظر في أخباره وأشعاره: ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص 156. وابن حيان: المقتبس، ص 66). سوار بن حمدون القيسي المحاربي، ثار بإلبيرة سنة 276هـ، وكان صاحباً ليحيى بن صقالة، أول الثائرين بالناحية، ولما قتله المولدون، أخذ مكانه في قيادة العرب، و لم يلبث أن قتل هو أيضاً سنة 277 هـ (ينظر في أخباره: ابن الآبار: الحلة السيراء، ج1 ص 147).

19- لم أعثر على ترجمة لجعد بن عبد الغافر، وأما الموقعة، فقد كانت سنة 276هـ.

20- ابن حيان: المقتبس، ص 58. وقد قتل يحيى بن صقاله سنة 277هـ والهبرزي: الأسد، الشديد. ويقصد ببني الحمراء السكان الأصليين من مولدين ومستعربين.

21- المصدر السابق، ص 57. والصياصي: مفردها صيصة وهي شوكة الحائك التي يسوي بها نسيجه.

22- المصدر نفسه، ص 64.

23- المصدر نفسه، ص 85. والشاعر عبد الله الملقب بشاعر الموازنة ليس له ترجمة، وهو من العرب القاطنين في أشبيلية. ومود: من ماد يميد: أي ماج واضطرب.

24- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، ج2 ، ص1. ولهوم: ملتهم. والعبل: الضخم. والقراقير: السفن الكبيرة. والأكشف: من يهزم في الحرب. والشواهين: جمع شاهين، وهو

طائر جارح. والغرانيق: جمع غرنوق وهو طائر صغير. والتنانين: جمع تنين وهـــو حيـــة عظيمة.

25- ابن عبد ربه: ديوانه، ص 39 ما بعدها. شدف: بمعنى قطع، أي أن خصورها ضامرة حتى لكأنها مقطوعة. والساج: شجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً. والزاج يســـتعمل في الصباغ.

26 - ابن حيان: المقتبس، ص 103.

27- المصدر السابق، ص 93.

28- المصدر نفسه، ص143. وعبيد الله بن يحيى بن إدريس من شعراء ذلك العصر، كان وزيراً وكان وافر الأدب كثير الشعر. (ينظر في أخباره وأشعاره: الحميدي: جذوة المقتبس، ص 582.

29- ابن حيان: المقتبس، ص 10. والشاعر عبيديس بن محمود كاتب عبيد الله بن أمبه بن الشالية وشـــاعره. (ينظر في أخباره وأشعاره: بغية الملتمس ص 1135).

مصادر البحث ومراجعه الأساسية

- ابن الآبار (محمد بن عبد الله) : الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط1، الشـــركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1963م.
- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ، ط2، دار الثقافـــة، بيروت 1969م.
- أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط5 ، دار الكتاب العربي، بيروت 1969م.
- أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، دمشق 1969م.
- أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط6 ، دار المعـــارف بمصر، القاهرة 1971.
- الألوسي (حكمة علي): فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثـــاني والثـــالث الهجري، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد (د.ت).
- جارثيا جومث: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، لجنة التـــأليف، القـــاهرة 1952م.
- الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر) : جذوة المقتبس، الدار المصرية للتـــأليف والترجمة، القاهرة 1966م.
- ابن حيان (أبو مروان القرطبي) : المقتبس في أخبار بلاد الأندلس، تحقيـــق عبـــد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م.
- ابن الخطيب (لسان الدين) : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمـــد عبـــد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط1 ، القاهرة 1974م.

- ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968م.
- دوزي: تاريخ مسلمي أسبانيا (الجزء الأول — الحروب الأهلية) ، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف بمصر، القاهرة 1963م.
- الركابي (جودت) : في الأدب الأندلسي، ط4 ، دار المعارف بمصر، القاهرة 1975م.
- ابن سعيد (علي بن سعيد المغربي) : المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة 1953م.
- ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) : ديوانه، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1979م.
- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت (د.ت).
- ابن القوطية القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1958م.
- كراتشوفسكي: الشعر العربي في الأندلس، ترجمة محمد منير مرسي، مطبعة مخيمر، القاهرة 1971م.
- مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، نشر لافوينتي أي الكنترا، مطابع ربدنير، مدريد 1967م.
- المحاسني (زكي) : شعر الحرب في أدب العرب، ط2 ، دار المعارف بمصر، القاهرة 1970م.

- المقري (أحمد بن محمد التلمساني) : نفح الطيب، تحقيــق إحســان عبــاس، دار صادر، بيروت، 1968م.